القرآن والبحر [1]

لقد اشار الاستاذ هـ باور (H. Bauer) في مقالة نشرها في احد اجزاء الانسكلوبيديا الاسلامية عن كلمة « فُلْك » الواردة في القرآن بمعنى السفينة او القارب الى ما كان لجريان الافلاك في البحر من قوة التأثير على محمد وقال هناك انهُ يظهر من بعض مواضع في القرآن [2] ان النبي العربي كان يرى في تسخير امواج البحر للناس وحملها لسفنهم المصنوعة بايديهم آيات شاهدات على رحمة الله . وقد كان في وسع الاستاذ باور ان يزيد على ذلك ان تصورات القرآن عن البحر وعواصفه تمتاز بشدة جلائها وقوة وصفها وان محمداً الذي لم يعرف بسعة تخيلاته في وصف الطبيعة حتى في وصف جنات النعيم صور لنا تصويراً حيًّا ذا حياة جريان الافلاك في البحر (النحل ١٤) وتسيير الله للناس فيه ويصف فرحهم وهم في الفلك « تجري بهم بريح طيبة » وشدة خوفهم « اذا جاءتهم ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان » (يونس ٢٢) ويشبه حياة الكفار « بسراب بقيعة » او « بظلمات في بحر لجيّ يغشاهُ موج من فوقهِ موج من فوقهِ سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها » (النور ٤٠)

انا لسوء الحظ لا نجد في السيرة النبوية التي لا تزال الابحاث الحديثة تزعزع ثقتنا بها مواداً كافية نقدر معها ان نجيب عن السؤال الآتي وهو كيف ومتى تحصلت لدى محمد تصوراتهُ الجلية عن البحر وعواصفه وهذا السؤال في نظري على جانب عظيم من الاهمية لان وصف البحر وماله علاقة بالبحريين الموضوعات التي لم يطرقها الشعر العربي وعلى الاخص الجاهلي منهُ

من المعلوم ان اصحاب السيرة النبوية لا يذكرون عن رحلات النبي البحرية او رحلاته الى اجد شواطئ البحر شيئاً بل هم لا يذكرون شيئاً عن زيارته للعراق القريبة من مكة كجدة وشعيب (يذكر الطبري ١ : ١١٣٥ المرفأ الاول في حديثه عن السفينة اليونانية التي القتها الامواج على ساحل البحر واستفادت منها قريش يوم جددت بناء الكعبة ويذكر المرفأ الثاني في حديثه عن هجرة المسلمين الاولى الى بلاد الحبش وهذا المرفأ كان الى جنوب جدة [3]) نعم ان السيرة تحدث عن رحلة النبي الى سوريا في قافلة لعمه ابي طالب ثم في قافلة

---

(١) للاستاذ العلامة ڤيلي بارتولد (W. Barthold) عضو اكاديمية بطرسبرج العلمية نقلها الى العربية الاستاذ بندلي الجوزي (٢) وذكر منها : يونس ٢٢ والنحل ١٤ والاسراء ٦٩ ولقمان ٣١ وفاطر ١٢ (٣) ج ٦ ص ١٤٨ و ١٩٣ (من طبعة ليدن)

اخرى لخديجة التي تزوجها بعد ذلك الا انها لا تذكر شيئاً عن مجيء النبي الى غزة مثلاً وهي اقرب مدن سوريا البحرية الى بلاد العرب حيث صاروا بعد الاسلام يزورون قبر هاشم جد محمد الا ان رحلة النبي الى سوريا هي من التفاصيل التي يشك في صحتها العلماء المتأخرون ومنهم الاب Lammens [1] الذي حار كيف يوفق بين ضآلة التخيلات التي أبداها النبي في وصف جنات عدن وقوتها في تصوير البحر وعواصفه Comment consilier cette indigence descriptive avec l'hypothèse de ses voyages en Syrie? لا تنكر ان هرشفلد [2] احد المستشرقين المعاصرين يظن ان الآية القرآنية (الصافات ١٣٧ و١٣٨) الذي يقول فيها محمد للقريشيين — بعد ان وصف لهم هلاك اصحاب لوط — « وانكم لتمرّون عليهم مصبحين وبالليل » تدل على معرفة النبي لاحد شواطئ البحر الميت . الا ان هذا الرأي ضعيف وغير مقنع ومثله الحديث الذي ورد ذكره في السيرة ورواه ابن سعد والواقدي عن الزهري وهو ان محمداً صحب قافلة لخديجة الى سوق حباشة في تهامة (وتهامة عند العرب [3] هي الارض الحارّة المسايرة للبحر يُضمّ اليها احياناً بعض القرى البعيدة قليلاً عن البحر ككة مثلاً) الا ان سوق حباشة لم يذكر بين المواقع البحرية بل لم يحددوا مكانه فهذا ياقوت الحموي لا يعرف عن حباشة الا ما جاء في الحديث المذكور آنفاً والمرفوع الى الزهري. وفي كتاب لابي عبيدة حيث ذكرت سوق حباشة بسوق قينقاع اي قبيلة بني قينقاع اليهودية التي كانت نازلة في المدينة والتي طردها النبي بعد ذلك منها . على انه لم يقم حتى الآن دليل على ان اولئك اليهود ، وهم سكان المدينة ومحترفوها الذين لم تكن لهم اراض، كانوا يسكنون شواطىء البحر او انهم كانوا على الاقل يتاجرون هناك

ان كلة بحر العربية (ومثلها كلة دريا الفارسية) تدل على البحر والنهر الكبير كما يظهر ذلك جليًّا من الآية « وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً » (الفرقان ٥٣) ومن الآية « وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج ومن كلٍّ تأكلون لحماً طريًّا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر...» (فاطر ١٢) ثم من اقوال المفسرين وقد قيل في الآية الاولى « ان الله جعل بين البحرين برزخاً وحجراً محجوراً » ووردت فيها كلة فُرات بمعنى عذب وفرات كما هو معلوم اسم النهر المعروف فاذا اعتبرنا كل ذلك جاز

(١) « مهد الاسلام » (في الفرنساوية) ج ١ ص ٩٠

(٢) انظر كتابه : New researches into the composition and exegeris of the Qoran, 28:

(٣) اطلب في معجم البلدان لياقوت الحموي ج ١ ك ١ ص ٩٠١ — ٩٠٣ م

لنا ان نقول ان الجناس المذكور (فُرات — الفرات) لم يجئ هنا عفواً وان محمداً أراد من الآية الثانية التي ذكر فيها ان الناس يستخرجون من البحرين — العذب والملح — ما يحتاجون اليه من الحلي الاقلاك التي كانت تمخر في بحر الهند او في خليج العجم وفي الفرات فاذا صحّ هذا الافتراض كان البرزخ الذي اقامهُ الله بين البحرين هي تلك الرمال التي كانت تفصل الفرات عن خليج العجم يؤيد ذلك ان اكبر شعبة للفرات كانت وقتئذٍ الشعبة الغربية وهي التي كانت تجري امام الحيرة وتنور في البطائح وان الشعب الصغيرة فقط كانت تبلغ دجلة وتتحد معهُ قبل ان يصب في البحر. ومعلوم ايضاً ان كتبة العرب كانوا حتى في العصرين التاسع والعاشر يعتقدون خطأ ان المسافة بين الحيرة والبحر حديثة العهد وان الحيرة كانت في الاعصر السابقة مرفأً على شاطئ البحر وعليه وبما ان محمداً كان يعرف بعض القرى الواقعة على شاطئ الفرات وقد ذكر منها (البقرة ٥٨) مدينة بابل وهي المدينة الوحيدة بعد مصر التي ورد ذكرها في القرآن من المدن الواقعة خارج جزيرة العرب يجوز لنا أن نفترض ان محمداً اراد بالبحرين في الآيتين المذكورتين سابقاً نهر الفرات وبحر الهند

وانها لجديرة بالاعتبار تلك الرابطة المعنوية التي جعلها القرآن بين الملاحة وبين عبادة الله الاحد وقد سبق الاستاذ مكدونلد Macdonald فنبّه في مقالة عن « الله » لشرحها في الانسكلوبيذيا الاسلامية أن سكان مكة كانوا يلجأون الى الله وهم في اشد حالات الخطر وقد استشهد على ذلك ببعض الآيات ومنها « ثم اذا مسكم الضرّ فاليه تجأرون ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون » (النحل ٥٣ و٥٤) الاّ انهُ يؤخذ من اربع آيات اخرى (يونس ٢٢ الاسرى او بنو اسرائيل ٦٩ الفرقان ٦٥ ولقمان ٣١) ان استعانة الناس بالله واعطائهم الوعود بان لا يعبدوا الاّ الله وحدهُ كانا يكونان في ساعات الخطر من العواصف البحرية وان عودهم الى الشرك كان يحدث بعد وصولهم الى البرّ يؤيد ذلك ويستظهرهُ حكاية رواها الطبري في تاريخه (١ : ١٦٤) عن ابن اسحاق ولم يذكرها ابن هشام ولهذا لم يستفد منها A. Sprenger (١) ولا تداولتها ايدي علماء اوربا. وخلاصة هذه الحكاية ان عكرمة ابن ابي جهل احد اعداء محمد الالداء (٢) الذين لم

(١) مؤلف كتاب « حياة محمد وتعاليمه » واحد مشهوري المستشرقين . م

(٢) وهو الذي عناه حسان بن ثابت في بيته :

فلا تأمنا يا ابن أم مجالد اذا التحت حرب واعصل نابها

(انظر ديوانه طبع H. Hirschfeld ص ٦٤) ورواه ابن هشام (٣ : ٢٣١)

فلا تأمنا يا ابن ام مجالد اذا احتبت حرباً واعصل نابها

يشملهم العفو يوم الفتح اراد ان يذهب الى البحر ليلحق بالحبشة قال « فلما اقتربت من السفينة لاركبها قال لي صاحبها لا تركب السفينة يا عبد الله حتى تقر بوحدة الله وتكفر بجميع الآلهة فاني اخاف أن انت لم تفعل هذا ان نهلك في السفينة فقلت لهُ هل لا يركب احد البحر الا اذا اعترف بوحدة الله وجحد كل اله دونه [1] فقال نعم لا احد يركب البحر الا اذا كان لهُ ايمان صادق فقلت اذن مالي افارق محمداً وقد جاءنا بذات النبي ان الآلهنا في البحر هو والله نفس الآلهنا في البر وعندها عرفت الاسلام ودخل قلبي »

ولا حاجة لان نبين للقارىء ان هذه الحكاية التي يعزونها الى عكرمة لا تستند على ادلة ثابتة والاصح انها مفتعلة او محرّفة وذلك لان عكرمة كما هو معلوم قد نالهُ العفو يوم الفتح بواسطة امرأته ام حكيم التي اعتنقت الاسلام قبله وقد جاء في رواية اخرى انها ذهبت تطلب زوجها الذي فرّ الى اليمن واتت بهِ الى النبي وجاءت في رواية ثالثة مأخوذة عن كتاب لموسى بن عقبة احد اسلاف ابن اسحاق حكاية عن الواقدي تفاصيل تختلف عما سبق قيل فيها ان ام حكيم بعد ان نالت العفو لزوجها من النبي ذهبت تطلبهُ فوجدتهُ في احدى قرى تهامة الواقعة على شاطىء البحر وقد ركب السفينة فاخذت تلوّح بيدها وتقول «يا بن عمي اني اتيتك من ارحم الناس ومن ابر الناس ومن خير الناس فلا تهلك نفسك وقد طلبت لك العفو منهُ فعفا عنك ». فقال لها عكرمة هل فعلت هذا ؟ فقالت « نعم فعلت وحدّثتهُ عنك فعفا عنك » فعاد عكرمة معها ولما اقترب من مكة قال رسول الله لاصحابه « لقد جاءكم عكرمة ابن ابي جهل مؤمناً ومهاجراً فلا تشتموا اباهُ لان شتم الميت يؤذي الحيّ ولا يصيب الميت » ثم ذكر بعد ذلك مقابلة عكرمة لمحمد

الا انهُ يؤخذ من كلام اليعقوبي المؤرخ الشيعي (٣ : ٦٣) ان عكرمة لم يهرب من مكة بل لم تتوجهُ الظروف الى ذلك فقد ذكر المؤرخ المذكور ان النبي امر بعد فتح مكة بلالاً ان يصعد الى سطح الكعبة ويؤذن فلما سمع القريشيون الاذان اكبروهُ وقال عكرمة ابن ابي جهل وخالد ابن اسيد « بلال بحمار فوق الكعبة » وقال غيرهم مثل ذلك فارسل رسول الله اليهم رجلاً فقالوا لهُ « نعم قد قلنا هذا وانا نستغفر الله على ذلك » فقال محمد اني والله لا اعلم ماذا اقول لكم . قد حان وقت الصلاة فمن اقامها منكم فليس عليهِ من حرج ومن لم يقمها فاني لمقدّمهُ وقاطع رأسه » فيستنتج من هذا الحديث ان عكرمة

(١) انظر ايضاً كتاب المغازي للواقدي ج ٥ ص ٤١٥

حضر اول صلاة اقامها النبي في الكعبة [١]

ويقرب من هذا الحديث — حتى في عباراته — حديث آخر عن هرب عكرمة لابن اسحاق ذكر فيه هرب رجل آخر من القرشيين وهو صفوان بن امية نسيب النبي (كانت ام محمد بنت جدّ صفوان) قال ابن اسحاق « ان صفوان بن امية خرج يريد جدة ليركب منها (بحراً) الى اليمن فطلب عمير بن وهب (احد اقرباء صفوان وخال النبي) الى محمد ان يؤمنهُ فأمنهُ فخرج عمير يطلب صفوان حتى ادركهُ وهو يريد ان يركب في البحر فقال « يا صفوان فداك ابي وامي الله الله في نفسك ان تهلكها » واخبرهُ انهُ جاء « من ابن عمه محمد افضل الناس وابرّ الناس واحلم الناس وخير الناس عزّه عزّك وشرفه شرفك وملكهُ ملكك » فانتنع صفوان — بعد ان تردّد قليلاً — بصحة كلام عمير وعاد معهُ الى محمد [٢] »

فلو عرضنا هذه الاحاديث بعضها على بعض لتبين لنا منها مقدار عنصر « الاختلاق الادبي » الذي ادخلهُ الكتبة المتأخرون حتى على الاخبار المتعلقة بسني حياة النبي الاخيرة ناهيك عن التي لها علاقة بالدور المكي من حياته ومع ذلك فاننا نجد بين الحكاية المنسوبة الى عكرمة وبين الآيات القرآنية التي اوردناها سابقاً عن استنابة العرب بالله تعالى في البحر وعودهم الى الشرك في البر مقارنة ظاهرة حتى لو عددنا الحكاية المذكورة من مبتكرات الخيال . وقد يجوز ان تقل الركاب من جزيرة العرب الى الشاطىء المقابل لها في البحر الاحمر كان وقتئذٍ في ايدي الحبش المسيحيين وان هؤلاء كانوا يخافون ان يصيبهم غضب الله ان وجد في قاربهم رجل مشرك. فان صحّ هذا الافتراض كان لنا في الآيات المذكورة دليل جديد على ان تصورات محمد عن الله تكوّنت تحت تأثير الفكرة المسيحية عن وحدة الله لا الفكرة اليهودية وهو ما تؤيدهُ كل يوم الابحاث العلمية عن منشأ الاسلام وتاريخ الدور الاول منهُ

---

(١) انظر ابن هشام — السيرة النبوية ج ٣ ص ٢٤٩ — ٢٥٠ من الطبعة المصرية والطبري ١ : ١٦٤٤ — (٢) وما نرفعه عن عكرمة بعد اسلامه انه اشترك في قتال اهالي عمان حين ارتدوا في خلافة ابي بكر واصاب منهم مغنماً وقتل بحراً ثم اشترك بعد انصرافه من عمان في قتال بني وليعة والاشعث بن قيس بن معدي كرب بن معاوية الكندي وقاتل الروم يوم اجنادين فقتل هناك مع من قتل من المسلمين اما امرأته ام حكيم فانها تزوجت بعده خالد بن سعيد بن العاصي بن امية فقتل في معركة يوم السفر (سنة ٦٣٦) فلما بنيها معها به انزعت عمود الفسطاط فقاتلت به « فيقال انها قتلت يومئذ سبعة نفر وذن بها لردع الخلوق » (فتوح البلدان ص ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٠٢، ٤١٤، ١١٨) م